

هل غاية الإبداع الفني التسلية والترفيه

المبدعون منقسمون إلى اليوم بين من يتبنى التسلية ومن يرفضها

قبل بضعة أسابيع، دعا رئيس الحكومة التونسية رجال الثقافة إلى الترويج عن نفوس عامة الناس للتخفيف عما يعانونه من كورونا وجرائرها. وقد أشار تصريحه ذلك موجة من السخرية، لأن الثقافة في مجملها ليست وسيلة للتسلية وترجية الوقت، بل هي عامل توعية وتنقيف قبل كل شيء. ولكن ألا ينتظر المتلقي من الإنتاج الثقافي، فناً ومسرحاً ورواية وسينما، ما يسليه وينسيه همومه؟ ألا يجد في ذلك فسحة للهروب من معيش مثقل بالمشاكل؟ أم أن الثقافة برمتها جد لا يقبل الهزل؟



أبو بكر العبادي
كاتب تونسي

وأشكال تخلق نظره وتسحر لبه، وتلك المتعة، على وجازة مدتها فهي عارضة عابرة، ترغمه على استعادتها مرارا وتكرارا دون أن يتخلص من فرقه الوجودي.

أما جان جاك روسو فكان يدين الفنانين الذين يعدلون أعمالهم على أهواء الشعب دون الاهتمام بحقيقة المشاعر، فلا يتوانون للحصول على الإعجاب، في تعويد الناس على الذوق السري، وبديل أن يطوروا الآداب العامة والأخلاق، يعملون على إفسادها.

ولكن بعض المبدعين يعارضون هذا الرأي، فبساتو بريان مثلاً كان يوصف بالساحر الذي يفتن قراءه، ومن البيهبي أن "المسحور" يكون معلقاً بين الحقيقة والخيال، بين البقطة والمنام، ولا يكون له من الوعي ما يؤهله لإدراك الواقع الذي يعيش فيه.

كذلك ماتيس حين صرح بأن لوحاته ينبغي أن تزيل الغم عن الفكر المجهد للإنسان المعاصر. والكسندر دوما الذي اعترف بأنه كتب رواية "الفرسان الثلاثة" لمجرد التسلية، وكان حتى في أواخر عمره يجد لذة في قراءتها بروح من ينأى عن الجذ ويتشد الهزل.

كما نجد بعض المفكرين مثل إيمانويل كانت، قد منح في تقسيمه للفنون الجميلة مكانة لفنون الترفيه التي تزين اليومي وتجعله أمتع للبصر، فالمتعة في رأيه لها علاقة وثيقة بالفن. وقد يكون الفنان سابقاً لعصره، يصوغ عملاً صياغة لم يسبقه إليها أحد، فيوجه ذائقة الجمهور، ويسمو به إلى ما هو روحاني بدل التكتف مع رغائبه، وهو ما قام به بعض الفنانين الثلاثينيين في بداية القرن الماضي، مثل الروسي فاسيلي كادينسكي حين أبدع لوحة تجريدية عام 1913، إذ كان لا يبحث عن الترويج عن الناس، لأنه يشعر أن له مهمة أسمى من حيازة إعجابهم هي إيناس المتلقي بمقاربات فنية حديثة، فالتسلية والترفيه وإحداث المتعة عنده ليست غاية المبدع، والذي يكتفي بتلك الغاية، قد يسبي إلى المتلقي بشكل أو بآخر، وهو ما نبه إليه روسو في رسالته إلى دالمبير حول

عادة ما تستعمل الثقافة خرجاً يوضع فيه كل شيء، خاصة لدى غير العارفين الذين لا يميزون التقاليد الموروثة من الأعمال المبتكرة، ولا فنون الرسم من الكتابة الإبداعية، يستوي عندهم المبدع والمتعلم، والروائي والمدرس الأكاديمي. ولا نتعقد أن المقصود برجال الثقافة في حديث الوزير هم المفكرون والباحثون والدارسون والمؤرخون والنقاد... وإنما رجال الفن تحديداً، أي أولئك الذين يمارسون الخلق والابتكار، ويعرضون إنتاجهم على الناس. والسؤال هل غايتهم من ذلك التوعية أم الترفيه؟

مع التسلية وضدها

منذ عصر الأنوار طُرحت مسألة دور الفنان المبدع في المجتمع، رساما كان أو مسرحياً أو أدبياً، وذهبوا في تناولها مذاهب شتى.

في "الأفكار" يخلع بليز باسكال على الترفيه معنى تراجيدياً، إذ يرى فيه كيفية يتعاضد عبرها الإنسان عن حقيقة وضعه، لأن التسلية في نظره هروب مرهء إلى بسؤس الوضع الاجتماعي والإنساني بعامته.

الفن لا يمكن حصره في الترفيه، لأن الترفيه غالباً ما يستخدم لوصف الأنشطة التي لا تهدف من ورائها غير الإمتاع

فإنسان يعلم أنه فان وتلك حقيقة ينوء بحملها ويتألم منها ولو سراً، ما يجعله يميل إلى كل ما ينسيه تناهيه، وفنائه المحتوم، لأن الفن يليه عن التامل في وضعه من خلال الوان



هنري ماتيس صرح أن لوحاته ينبغي أن تزيل الغم

معادلة لا يزال أهل الفن أنفسهم حتى يوم الناس هذا منقسمين حولها، مختلفين بشأنها. وكل إناء بما فيه يربح. قد نرّج عن أنفسنا بقراءة قصة أو رواية أو قصيدة، دون أن يعني ذلك أن صاحبها قصد الترويح عنا. أي أن الغاية المضرة قد تتحقق عن طريق المتلقي نفسه.

وأيا ما يكن موقفنا من الفن وغاياته، فالإصلي هو الباقي، أم المتهافت فيذهب جُفاء. فالعمل الفني الحق، كما يقول أندري مارلو، هو ما يظل محتفظاً بحضور ما برغم مرور القرون، لأنه لا يخاطب نكاعنا فقط بل يحمل في طياته حياة ملغزة. ماتت مونا ليزا، وما زالت الجوكوندا تذهلنا. وقضى رواة ألف ليلة وليلة، نحبه، وما زالت شهرزاد حاضرة في ذاكرتنا على مرّ الأجيال.

وكانا قد لاحظنا في منفاهما الأميركي كيف تحولت الثقافة الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية إلى صناعة، تبحث عن الرواج بأي وسيلة، شأن كل بضاعة، فيما كان برتولد بريخت يسعى عبر أعماله المتعددة إلى إيقاظ وعي المتلقي المأخوذ بالوهم المسرحي، لأن دفع الإنسان إلى التفكير في مكانة الفن داخل المجتمع هو المهمة الحقيقية للفنان.

ولكن الفنان الذي يستغل عمله لتوجيه رسالة ما، ألا يحيد عن غايته الأولى، أي الابتكار، فيخون جوهر الفن؟ وإذا لم تكن له من مهمة غير الترفيه عن الناس بلا غاية أو مطنح، فما الذي يميزه عندئذ عن المهرجين الذي يجهدون في محاولة انتزاع البسمة بأي وسيلة؟

وبصورة مبدع منفرد ينجز ابتكارات ويتوصل إلى اكتشافات. ومن ثمّ، لا يمكن حصر الفن في الترفيه، لأن الترفيه غالباً ما يستخدم لوصف الأنشطة التي لا تهدف من ورائها غير إمتاع الناس وتسليتهم بشتى الوسائل، كما هو الشأن مع عروض السيرك، ومسرحيات السوان وان الأفلام شتّى، والمنوعات التلفزيونية، والأفلام الكوميديّة، وكلها تهدف إلى خلق أجواء تساعد الناس على الهروب من واقع بائس أو كئيب أو مرهق.

أما أدورنو وهوركهايمر، مؤسساً مدرسة فرانكفورت، فقد أكدوا أن الثقافة الجماهيرية والنزوق الرجوازي للفن قد سببت إلى رسالة الفنان، حين يفقد وسائل المصمود أمام شروط الترفيه التي يرفضها مجتمع الاستهلاك،

عروض الفرجة، حين أكد أن المسرح يُخرج الأهواء التي ليست فينا، ويثير ما هي كامنة بداخلنا. "فالفنان، حين يرغب في إثارة الإعجاب، غالباً ما يُدكي نوازعا السيئة". ويخلص روسو إلى أن الترفيه مفسدة.

الالتزام في الفن

في الطرف المقابل، يعتقد داعة الالتزام أن للفنان دوراً تجاه المجتمع، فواجب الفنان في رأي جان بول سارتر مثلاً هو أن يقترح على المتلقي صورة عن مجتمعه وواقعه، حتى يساهم في تنمية وعي أفراد المجتمع بوضعهم وملامح بيئتهم المتنوعة، باعتباره إسفنجة تتضمخ بحيطها، لأن الفن في المخيال الجمعي متصل بالعبرية،

غسان الرحباني يودّع الرخاء اللبناني بأغنية ساخرة

لعامها ولزمنها فقط "الكنني لم أكن أنتظر أن تستمر إلى هذا اليوم.. أنا كنت أفضل ألا تعيش إذا كانت بلادنا ستنزل على حالها الماساوي".

الأغنية تعكس مسيرة حياة المواطن اللبناني ما قبل الاحتجاجات ضد السلطة الحاكمة في 17 أكتوبر، وما بعدها

وتقول كلمات الأغنية (صارت سنة الألفين وراح الاحتلال/ وما عاد فيه مشاكل وربحنا هالبيال/ والوزارات نظيفة وعقولنا خفيفة.. صارت سنة الألفين وصار عنا نظام/ وصار فيه زفت كثير وبقينا ع العظام/ وخلصت الرشاوي وعم نرقص بداوي".

وغسان الرحباني هو موسيقي ومنتج وكاتب أغان وملحن وموزع وقائد أوركسترا وعازف بيانو ومغن وممثل مسرحي، ولد في بيروت عام 1964 وبدأ التأليف الموسيقي مبكراً. وفي العام 1976 شارك بالغناء مع أخيه جاد ووالده إلياس في اليوم يضم أشهر أغاني الأطفال في لبنان، كما قدم العديد من المسرحيات منها المسرحية التاريخية "هنبيعل" التي عرضت في مهرجانات في لبنان وتونس. وفي 1997 كوّن فرقة "الفور كاتس" التي أحييت العديد من أغاني إلياس الرحباني.

الماضي إلى مقتل 200 شخص وإصابة أكثر من ستة آلاف ودمر مناطق واسعة من المدينة.

وبعد الانفجار، يقول ابن الفنان الشهير إلياس الرحباني شقيق الأخوين الرحباني، إنه لم يعد قادراً على "الكذب على اللبنانيين وتصوير المدينة كما يرده بعض الفنانين على أنها بيروت التي لا تموت، أنا ما شايفها بتقوم (لا أراها تنهض) لأن توقيت هذا الانفجار كان مدروساً لإلغاء مرفأ بيروت حتى يحل مكانه مرفأ آخر، وساذج الذي يعتقد أن هذا الانفجار هو إهمال، يستطيع أن يكون إهمالاً استعمل من أعداء لبنان لإحداث تغيير جذري، هذا مدبر على توقيت معين".

وقبل "لسه فاكر" و"إرسم عمري" كان الرحباني قد سخر من الأزمة المالية الاجتماعية في لبنان عندما أحتجرت أموال المودعين في المصارف، وأطلق أغنية "معك ما معك" التي جسدت، كما يقول "ذل اللبنانيين على أبواب المصارف وهم يطالبون بالحصول على جزء من أموالهم".

وللرحباني منذ أكثر من ثلاثين عاماً أغنيات وأعمال تحمل طابع التهمك على حال مرير، ومنها "معالي الوزير" و"طريق المطار"، أما أبرزها والتي يردها اللبنانيون يومياً فهي أغنية "اشتغل وما تقبض يا حبوب كتب عليك العمل ببلاش".

أصبح الدولار بثمنانية آلاف ليرة. يعني نحن عملنا الثورة لكي لا تصل الأمور إلى هنا. إذن، إذا كان هناك ثورة أو لا كانوا يريدون إصالحنا إلى هنا من أجل شيء ما".

واعتماد غسان الرحباني محاكاة الواقع بأغنيات ساخرة تجسّد في كل مرة حالة البلد وانتهاك بيئته ومعاناة أبنائه مع نظام لا يتغير، ومنها أغنية "إرسم عمري" التي صورها في مرفأ بيروت ويظهر فيها مشاهد الدمار. وأدى انفجار المرفأ في الرابع من أغسطس

ويشبه الرحباني لبنان منذ عام 1975 تاريخ بداية الحرب الأهلية التي انتهت في 1990 إلى اليوم بمبنى ذي أعمدة فككوا جميع أعمدته، وأبقوا على واحد وظل لبنان صامداً إلى أن "مسوا بالعمود الأخير الذي كان يسند المبنى وهو النظام المصرفي.. فوقع البلد".

ويعزو غسان الرحباني أسباب الانهيار إلى عوامل خارجية وليست داخلية "القوى الخارجية تريد شيئاً ما من لبنان، لأن الثورة بدأت حين كان سعر الدولار يوازي 1500 ليرة وانتهت حين

انقلبت مرحلة الرخاء اللبناني إلى تنذر ساحر بات يطرح المعاناة في قالب هزلي يصور الفارق الاقتصادي بين العام الماضي واليوم، وذلك بسبب أسوأ أزمة اقتصادية مالية يشهدها لبنان على مرّ تاريخه، وما الأغنية الأخيرة لغسان الرحباني "لسه فاكر كان زمان" إلا عنوان لهذا التهمك.

ليلي بسام

وزعيم باقي حرامي فضلك تمام/ لسه فاكر كان زمان مش من زمان".

ويقارن الفيديو الذي أخرجه رانيا غصن الحاج وظهر فيه الفنان الكوميدي فادي شريل بين الوضع السابق والوضع الحالي الصعب.

ويعتبر الرحباني أن هذا العمل يشكّل صراعاً بين اللبناني وعنفوانه "قهناك من يجب الحياة وما زال يريد أن يذهب إلى المطعم في وقت أصبحت الصحون فارغة".

وفي مشهد آخر من الفيديو تظهر امرأة تمثل اللبناني غير المقتنع بضرورة التحول إلى شراء الملابس وتغيير نمط حياته وأنواع طعامه واستبدال سيارته "فالسيرة لم يعد باستطاعته إبدالها ساعة يريد.. يعني كل شيء عندك لم يعد بمقدورك تغييره". ويرى غسان الرحباني أن هذه الأغنية تعكس مسيرة حياة المواطن ما قبل الاحتجاجات ضد السلطة الحاكمة في 17 أكتوبر، وما بعد "فإما أن يقّر اللبناني

أن هناك تغيراً جذرياً حصل في حياته أو أن لا يقّر، إذا لم يرد الاعتراف فسوف يظهر ذلك على صحته مع الوقت، وإذا اعترف وتاقلم مع هذا التغيير يستطيع أن يستمر لأطول وقت ممكن في منطقة جغرافية يقولون أنها حارقة".



تهكم موسيقي لاذع من وضع ما انفك يتأزم